الشاعر البحرینی علی عبدالله خلیفة؛ وقفة مع شعره وأدبه

مهدی ممتحن

أستاذ مشارک بجامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت، إیران.

طیب عبدائی

خریج جامعة آزاد الاسلإمیة فی جیرفت، إیران.

Dr.momtahen@yahoo.com

الملخص

علی عبدالله خلیفة، شاعر الغوص والبحر من أبرز الشعراء الحرکة الأدبیة الجدیدة فی البحرین، تلک الحرکة التی انبثقت فی الستینیات وصاحبت التطورات السیاسیة والاجتماعیة والاقتصادیة والثقافیة فی البحرین، وامتزجت بها وتخلقت فی أتونها الواقعیة.

إنه قد أنشد شعراً فی مختلف الأغراض الشعریة، لذلک نجد دواوینه تشتمل مضامین متنوعة مثل: البحر، المرأة، الوطن، والنخلة، و...إلخ. ونلاحظ فی أشعاره أن لبیئته المعیشیة دوراً کبیراً فی إنشاده الأشعار الفصیحة کما صاغ کلمات ملائمة بظروف التی کانت تمر فی حیاته ونری فی دیوانه الأول "أنین الصواری" قد جسّد حیاة غواصی اللؤلؤ ومهنتهم الشاقة ومکابد سفرهم فی سیاقٍ مسرحیٍ جمیل.

نشأ علی عبدالله خلیفة علی حبّ الشعر العربی القدیم فکتبه بشفافیة وعذوبة ورقّة، خرج من دائرة إیقاعه العروضی الرتیب، باحثاً فی شعر التفعیلة عن مساحات جدیدة، رحبة، مفتوحة الأبواب. وحین لم یرض هذا الجدید ذائقته الشعریة، وجدناه یقبل صوب الأجد، الذی ما فتئ یستشرف فضاءات لا حدود لها ولا نهایات.

الكلمات الدليلية: على عبدالله خليفة، الشعر، البحرين، الأدب، النقد، المضامين، الوطن.

المقدمة

على عبدالله خليفة أحد من أبرز الشعراء المعاصرين الذين رسموا أفق الحركة الشعرية الحديثة فى البحرين، ويبدع نوعاً متميزاً من أدب البحر هو شعر الغوص على اللؤلؤ، ويقدم بذلك إضافة ثرية لأدب البحر.

تعد تجربة على عبدالله خليفة تجربة طويلة وثرية، فقد عُدَّ صاحبها من شعراء الحداثة الأول ومن المؤسسين الأوائل للشعر الحديث فى البحرين. بل اعتبره بعضهم "قيثارة المعاصرة" لما يجمع فى هذا الشاعر من غنائية وإيقاع شعرى يشدنا إلى أصالة قصائد التفعيلة وما تكتنزه من موسيقى وعذوبة وألحان وبين المعاصرة التى لم تنأ بالشاعر عن هموم مجتمعه وقضايا وطنه والظرف التاريخى الذى ظهر فيه ومختلف المتغيرات التى ألمت بالمجتمعات العربية عموماً والمجتمع البحرينى على وجه الخصوص.

وهو ناشر ورئيس تحرير مجلة "كتابات" الأدبية البحرينية، وهو راعى الحركة الأدبية الجديدة فى البحرين، كما أنه باحث ودارس ومبدع للموال والتراث الشعبى الخليجى، فهو المشرف على ركز التراث الشعبى بالخليج، ورئيس تحرير مجلة "الماثورات الشعبية" كما تتدفق أغانية عبر حناجر مطربى الخليج. نشر على عبدالله الخليفة عدداً كبيراً من الدواوين الشعرية.

يتناول هذا المقال فى البداية، الحياة وسيرة الشاعر، ثمّ يعدّ مؤلفاته الشعرية ودراساته الأدبية ثمّ يسوق إلى أشعاره ودراسة مضامينها وفى النهاية يبحث حول الشعر الرمزى والواقعى.

لمحة عن حياة الشاعر على عبدالله خليفة

وُلد على عبدالله خليفة بمدينة المحرق عام ١٩٤٤م فى بيت فقير ينتمى جميع أهله إلى طبقة الغواصين وتلقى تعليمه فى مدرسة البحرين حتى أتم المرحلة الثانوية، وكان يعمل بعد أوقات الدراسة ليساعد عائلته على أود العيش. ثم اشتغل بعد إتمام دراسة الثانوية موظفاً فى إدارة الجمارک بالمنامة.

وبدأ على ينشر محاولاته الشعرية الأولى فى مجلات الحائط بالمحرق ثم فى الأعلام الشهرية (هنا البحرين) حتى إن عادت الصحافة الأهلية إلى الصدور فى البحرين عام ١٩٦٥م، فبدأ ينشر فى جريدة الأضواء . ثم جمع قصائدة فى كتاب أصدره عام ١٩٦٩م، تحت عنوان (أنين الصوارى) كان عبارة عن مجموعته الشعرية الأولى، وقد تركزت موضوعاته على تجربة الإنسان المحلى ومعاناته الواقعية من خلال شخصية الغواص كما يلاحظ عبدالله واختيار هذا الاسم دليل الثقافة ودليل المعاناة الطائى. وكان جل قصائده المجموعة يلتزم الشكل

التفعيلى المتحرر لذلک فهى أول مجموعة شعرية تصدر فى إطار مرحلة الشعر الواقعى الجديد التى انبثقت عن إحداث حركة ١٩٦٥م الشعبية، لتحدد انطلاقة هذا النوع من الشعر وملامحه المتميزة على كل ما سبقه على المستوين الشكلى والموضوعى، أو بمعنى أدق على مستوى الصياغة المتطورة شكلاً ومضموناً.

وبعد صدور مجموعة الأولى ببضع شهور اشترک على مع زملاء له من الأدباء الشباب فى تأسيس أسرة الآداب والكتاب، وهو أول كيان أدبى حديث فى البحرين بعد النادى الأدبى الذى تأسس قبل نصف قرن منه تقريباً. وفى طار أسرة الأدباء كانت انطلاقة على خليفة القوية، كما كانت انطلاقة الحركة الشعرية الجديدة برمتها. فقد تسلم على مراكز قيادية فى إدارة الأسرة الأدبية خاصة فى سنواتها الأولى.

هو يعيش مذ ولد شاعراً قبل أربعين عاماً فى حدائق الوجد المعبر عن الإبداع والفن الأصيل، من مدينة المحرق شاهد البحارة والغواصين فى رحلاتهم التى كانت تسافر فيها المراكب والأحلام، وتبقى الدموع متوهجة إلى أن يعود الأحبة الذين لايبتلعهم البحر من رحلات الغوص، ويعتبر خليفة نموذجاً للشاعر الذى يمزج بين الشعر الشعبى والفصيح، كما أن له صولات وجولات فى التراث العربى، واختيرت قصائده ضمن المقررات المدرسية فى العديد من بلدان الخليج، إضافة إلى ترجمة مختارات من أشعاره إلى لغات عالمية عديدة، وهو شخصية محبوبة تبوأ العديد من المراكز الثقافة الهامة فى بلاده.

سافر الشاعر على عبدالله خليفة لمدة سنوات إلى القطر وهو يعتقد قد اكتسب فى القطر تجربيات عديدة ويقول فى حوار مع جريدة الاتحاد فى: ١٧سبتمبر٢٠٠٧ حول هذه التجارب.على عبدالله خليفة، يبدع نوعاً متميزاً من أدب البحر. هو شعر الغوص على اللؤلؤ، ويقدم بذلک إضافة ثرية لأدب البحر.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

شخصيته الأدبية

على عبدالله خليفة، شاعر الغوص والبحر. من أبرز الشعراء الحركة الأدبية الجديدة فى البحرين، تلک الحركة التى انبثقت فى الستينيات وصاحبت التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى البحرين، وامتزجت بها وتخلقت فى أتونها الواقعية. وهو شاعر ورائد فى الحياة الثقافية بالبحرين. فهو شاعر فصيح وشاعر عامى أيضاً. وهو ناشر ورئيس تحرير مجلة "كتابات" الأدبية البحرينية، وهو راعى الحركة الأدبية الجديدة فى البحرين، كما أنه باحث ودارس ومبدع للموال والتراث الشعبى الخليجى، فهو المشرف على مركز التراث الشعبى بالخليج، ورئيس تحرير مجلة "الماثورات الشعبية" كما تتدفق أغانية عبر حناجر مطربى الخليج، وسنقتصر فى

هذه الدراسة على شعره الفصيح كما يتمثل فى ديوانيه: "أنين الصوارى" و"إضاءة لذاكرة الوطن" أما ديواناه العاميان "عطش النخيل" و"عصافير المساء" فنرجئهما لدراسة أخرى، ونركز على تجربته الشعرية فى التعبير عن عالم الغوص والبحر.فهو يستند إلى تراث البحر العربى العظيم بدءاً من معلقة طرفة بن العبد.ابن البحرين وشاعر البحر فى العصر الجاهلى. وانتهاء بأدب البحر العربى القديم والحديث فى صيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ بالبحرين. أضف إلى ذلک نشأته فى بيت بحارة وغواصين على اللؤلؤ، مما أكسبه خبرات ومعاناة هؤلاء الكادحين فى البحر.

راهن الشاعر منذ بداية تعاطيه فى التعبير بالشعر المحكى على أن اللهجة المحكية فى الوطن العربى آخذة فى التطور لتصل فى نهاية المطاف أقرب ما يمكن أن تكون إلى اللغة العربية الفصحى فى ظل تطور المجتمع العربى وانتشار التعليم وتقنيات الاتصال وانفتاح العالم على بعضه البعض، وقد تأكدت هذه النظرة من خلال ما طرحه الشاعر من أشعار بالهجة المحكية الخليجية وظف بها كل ما هو مناسب من منجزات القصيدة العربية.

ويضيف الشاعر: «ولقد قلت عند بداية السبعينات عند إصدار مواويل (عطش النخيل) بأن كتابة الشعر بالعامية كتابة مرحلية، وأن هذا الشعر بلا مستقبل لأن اللهجة فى تطور يومى مستمر بفعل تطور المجتمع وانتشار التعليم، وتنبأت بأن تضيق الشقة مابين الفصحى والعامية بحيث ترقى العامية شيئاً فشيئاً لتصل أقرب ما تكون للفصحى. هذه الرؤية كانت جلية أمامى وها هى تتحقق اليوم من بعد خمس وثلاثين عاماً كأروع ماتكون فيما يكتبه شعراء العامية الجدد فى سلطنة عمان بالتحديد وفى بعض ما يكتبه قلة من شعراء دول الخليج الفارسى الأخرى. فاللغة التى يكتبون بها ليست هى العامية التى كتبت بها أشعارى عند أوائل السبعينيات تلک اللهجة التى لم تكن بالطبع لهجة الشارع وإنما هى امتداد لتلک اللهجة المصفاة التى حملها إلينا الشعر الشعبى فى أرقى وأعذب نصوصه.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

أبرز مؤلفاته

الأستاذ على عبدالله خليفة من أبرز شعراء البحرين صدرت له عدة دواوين الشعرية، ودراسات أدبية، منها:

أنين الصوارى– مجموعة شعرية بالفصحى– دار العلم للملايين– بيروت ١٩٦٩م .

عطش النخيل– مجموعة شعرية بالعامية– دار العلم للملايين– بيروت١٩٧٠م.

إضاءة لذاكرة الوطن– مجموعة شعرية بالفصحى– دار الآداب – بيروت١٩٧٣م.

عصافير المسا– مجموعة شعرية بالعامية– دار الغد – البحرين ١٩٨٣م.

فی وداع السیدة الخضراء- مجموعة شعریة بالفصحی- دار الغد- البحرین ۱۹۹۲م.

حوریة العاشق- مجموعة شعریة بالفصحی- المؤسسة العربیة للدراسات والنشر- بیروت۲۰۰۰م.

یعشب الورق- مختارات شعریة- أسرة الأدباء والکتّاب - البحرین ۲۰۰۵م.

لایتشابه الشجر-مجموعة شعریة بالفصحی- المؤسسة العربیة للدراسات والنشر- بیروت۲۰۰۵م.

علی قلب واحد- مجموعة شعریة بالعامیة- (ألبوم یحوی الدیوان برفقة قرص مدمج cd بصوت الشاعر وموسیقی من تألیف محمد حداد) - الأیام للنشر والتوزیع- البحرین.

قمر وحید- مختارات شعریة ترجمها إلی الفرنسیة المعطی قبال- دار باریس میدی ترانیه- باریس ۲۰۰۶م.

وشائج- مختارات شعریة ترجمها إلی الفرنسیة مع رسوم الفنانة الفرنسیة شانتال لوجندری ومقدمة نقدیة بالعربیة للدکتورة نور الهدی بادیس ومقدمة بالفرنسیة للأستاذ دافید دومورتییة.

الدراسات والأبحاث

دیوان حسن الفرحان(تحقیق وشرح وتقدیم)- إدارة الثقافة والفنون- قطر۱۹۸۰م.

فنون الموال(بحث میدانی لجمع وتحقیق وتوثیق نصوص الموال فی الخلیج الفارسی)- ۱۹۷۱م.

خلیج الأغانی (بحث میدانی لتوفیق الأغانی والرقصات الشعبیة فی الخلیج الفارسی)-۱۹۷۹م.

أشکال ومضامین النصوص الشعریة فی فن(الفجری)- قطاع الثقافة والتراث الوطنی- وزارة الإعلام- البحرین۲۰۰۱م.

الشعر العامی الحدیث والتقنیات الجدیدة- وزارة التراث القومی والثقافة- سلطنة عمان۲۰۰۲م.

استلهام التراث الشعبی فی الأعمال الإبداعیة- مرکز التراث الشعبی لمجلس التعاون لدول الخلیج- قطر۲۰۰۳م.

أشعاره

أی قارئ یتصفح دواوین هذا الشاعر البحرینی، فإنه دون شک سوف یدرک أنه قد أنشد شعراً فی مختلف المضامین الشعریة، لذلک نجد فی دواوینه یتناول مضامین متنوعة مثل: البحر، والمرأة، والحبّ، والوطن، والطبیعة،

وبعض الأغراض القديمة. وفى الواقع يمكن القول إنّ على عبدالله خليفة شاعر البحر والغوص وتعلّم هذا الفن من بيئته وحياة الغواصين الذين كانوا بجواره.

أولاً، البحر والغوص:

يبدع على عبدالله خليفة، ينوعاً متميزاً من أدب البحر. هو شعر الغوص على اللؤلؤ، ويقدم بذلك إضافة ثرية لأدب البحر.

من السطور الأولى فى ديوانه الأول "أنين الصوارى" تبرز الرؤية الاجتماعية والفكرية للشاعر على عبدالله خليفة، وتمتزج بهموم عالم البحر والغوص، وتتداخل مع قضايا العرب والعالم والتحررية، فيستهل ديوانه بقصيدتة "إلى أمى" للتعريف بموقفة ورؤاه، فهو مع الفقراء والبؤساء والمرضى مثلما هو مع المكافحين والمناضلين.

ها هُمُ قدْ أبحروا..كلُّ الرفاقْ
شَرَّعوا بالشَّوقِ فى بدءِ انطلاقْ
والمجاذيفُ مضت فى البحر..
عُنفاً واتّساقْ
بينما تلكَ الصّوارى فى أنينْ..
هىَ و(النّهّامُ) فى لحنٍ حزينٍ..
لايطاقْ.

(خليفة، ١٩٩٤م:٥١)

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

****

أنا الإنسان يا أمى،
أنا الإنسان فى شتى بقاع الأرض...
فى الإصرار..فى الزحف
أنا فى اليتم..فى التشريد..
فى التنكيل والعسف
أنا جمع من الفقراء والبوساء والمرضى
وتاريخ من التشتيت والكبت.

(المصدر نفسه: ٢٧)

أما حياة البحار والغواص فيصورها على عبدالله خليفة فى صور قصصية شعرية فى قصيدته "على أبواب الرحلة الأولى"، وهو تصوير واقعى اجتماعى يرتفع فيه صوت الاحتجاج والغضب فى التعبير عن مأساة الغواص الاجتماعية والإنسانية. فلا مجال للرومانسية لدى شاعر الغوص والبحر البحرينى، لأنه اكتوى بمرارات التجربة فى عالم البحر والغوص وعذابات العيش ومكابدات الديون والاستغلال ومعاناة الرحلة البحرية.

ومن هنا تأتى الاضافة التى يقدمها على عبدالله خليفة إلى لوحة أدب البحر العالمى، أنه يقدم شخصيات جديدة من عالم الغوص على اللؤلؤ، تجلب الثروات لغيرها ولكنها تعالى الفقر والبؤس، ومن المزج بين الرؤية الاجتماعية والصور الواقعية لحياة البحار والغواص وبين معاناة الديون لأصحاب سفن الصيد وتجار اللؤلؤ.وهذا هو ما يصوره على عبدالله خليفة فى قصيدته الطويلة "على أبواب الرحلة الأولى" مخاطباً الغوص الجديد فى رحلته مصوراً معاناته.

جُلَّ ما يصفى لنا للدين، والباقى زهيد

لايفى قوت العيال

يا له ديانتا الفظ الصفيق

كجموع الدود فى أمعاء غواص فقير

قرحة شوهاء فى جسم صعير

أربعون العمر فى الكد انقضت

وزفات الجسم للحيتان فى قاع الخليج

والذى باق من الدين كثير

يرحم الله أبا.

كان لى نعم الصديق

يا صغيرى،

واقع الحال..كذا كيف الخلاص؟

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

لا فكاك..لا مناص

من سداد الدين فى دين جديد

ولكى تأتى بقوت..كى تعيش

الزم الأبحار فى ركب المغاص

(المصدر نفسه: ٢٨)

ويوجه الشاعر حديثة للغواص الجديد كى يشتد فى مواجهة البحر الجبار، ويصور رحلة الغوص الشاقة ومعاناتها المزدوجة فى عالم البحر العتيف ومأساة الفقر والجوع والوادع.وتتركب الصور من مفردات عالم البحر والغوص والمعاناة الإنسانية الأليمة.

كن جلوداً..لاتخف، كن كالحديد

فالذى تقصد جبار عنيف

عندما تهوى المجاذيف على الأمواج

فى عنف طليق

(المصدر نفسه: ٢٩)

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

ثانياً، المرأة:

لايمكن للمطلع على شعر على عبدالله خليفة إلا يدرک من الوهلة الأولى أنه شاعر المرأة، ذلک أنها حاضرة فى شعره حضوراً قوياً وأنها اتخدت أشكالاً متعددة لعل أبسطها وأوضحها للعيان المرأة الحبيبة أو المعشوقة.فغايتنا أن ندرس حضور المرأة فى القصيدة، كيف عبّر أنها الشاعر؟ كيف رسّم دورها؟ وكيف جاءت منزلتها الفنية؟ وما هى الأبعاد التأويلية التى يمكن أن ندركها لها فى هذا الشعر؟

أرَق

لَعلّکِ، الليلةَ، تَرقُدينَ هانِئَة

على سريرٍ آمنٍ منَ القَلَق

تَستَدرجينَ نجمةً إلى فِراشِكِ الدّفِيء

وتَلعَبينَ فى حَديقةِ المساءِ بالأَلَق

وَها هُنا، غَير بعيدٍ منكِ، عاشِقٌ

يذَوِّبُ الحنينَ أسطُراً على الوَرَق

يغالبُ الهوى الذى يجتَاحُهُ...

(خليفة، ١٩٩٢م: ٤٧)

ولعلنا نميل إلى اعتبار أن القصائد الأولى المنتقاة فى هذا المؤلف تعكس طبيعة تجربة الشاعر على عبدالله خليفة من حيث خصائص العبارة الشعرية والفنية ولعلنا نلمس فعلاً خصائص للعبارة المباشرة فى تصوير عناء "التباب" الصغير مثلاً يغادر أبوية فتشيعه الأم بدموعها ويودعه أبوه متشبثاً برجائه فى الله.يغادره إلى البحر وعنائه باحثاًعن "دانة" لم ير الغوص حسنا مثلها أو حوى قلب المحار "دانة" يعشقها إلى حد العبادة وهى فى كون الممكن البعيد أو الحلم الذى يداعب آماله:

وإذا جئت إلى محارة عذراء

فى يوم سعيد

ورأيت الحظ فيها

درة براقة تزهو الخريد

فاحمد الله، وبارک

يومک المعطى الجديد

(خليفة، ١٩٩٤م: ٣١)

إنه حلم جميل ينوء بحمله جسمه العياء و"شرعة البحر تريد الأقوياء" فالعبارة الشعرية على ما فيها من ألق وإتقان تبقى عبارة مناضلة كادحة تعكس نضال الشاعر ومؤازرته للكادحين من أجل قوت يومهم.

كن جلوداً..لاتخف، كن كالحديد

فالذى تقصد جبار عنيد

(...)

إلزم الإبحار يا ابن الكادحين

طائعا للكل (تباباً) ظريف

لايمل الجرى من ركن إلى ركن ..خفيف

(المصدر نفسه: ٣٠)

ثالثاً، الوطن:

إذن فإن الاحساس العميق بالوطن مما يميز تجربة الإنسان البحرانى ويشده إليه حتى وهو فى غربته منفياً أو مسافراً.فالتقارب العائلى المنتشر بين أسر المجتمع البحرانى والهدوء والأمن اللذان يسودان ربوع البلاد وبخاصة منذ بدايات هذا القران والبساطة المتناهية فى العلاقات الاجتماعية، وعراقة التواجد الاجتماعى وطمأنية العيش وتوفر مصادره المختلفة، كل ذلک غرس الحب العميق فى قلب الإنسان البحرانى لوطنه والنضال من أجله وهو على أرضه وكما غرس فى روحه الحنين الطاغى والتوق الدائم إليه وهو بعيد عنه، إضافة إلى التسامح الإنسانى والانفتاح على مختلف الأجناس والأديان والقيومات والطوائف الذين اتسم بهما المجتمع البحرانى، إذ منحاه أفقاً انسانياً أوسع مما عمق تجربته الحضارية والفكرية.

زرقةُ البحر قامَت

على كَتفِها طفلتان

طفلةٌ قبَّلتنى ونامَت

حقولَ (بَباي) حزينٍ بحضن المروج

طفلةٌ عذّبتنى طويلاً طويلاً

(....)

فاستَرح يا ترابَ الخليج

واشربِ الحرقة اللاهبة

سوفَ يرشَحُ يوماً

لكَ الطوبُ فى الأبنية

رغوةَ الشمسِ والياسمينِ

وخطف البريق

إسترح، يا ترابَ الخليج

إسترح، يا ترابَ الخليج

...انتظرنى.

(خليفة، ٢٠٠٠م: ٧)

رابعاً، النخلة:

النخلة مظهر من مظاهر الطبيعة ولها معنى خاص فى حياة الإنسان البحرانى ولها مذاق متمايز فى نفسه ينطوى على كثير من المرارة والعذاب على الرغم من الجمال الظاهر الذى تبدو عليه النخلة.

كانت النخلة بالنسبة للإنسان البحرانى هى الأم الحقيقية التى لم يكن ليستطيع أن يعيش بغيرها، فإن البحر هو أبوه الشرعى ومانحة الخير والرزق والحياة.

فى قصيدة "فى وداع السيدة الخضراء" يخاطب الشاعر على عبدالله النخلة ليودعها فيقول عندما يقضى عليک التوسع العمرانى والتطور الاقتصادى وتقطع اجزاءک ليحلّ محلها الاسفلت لايبقى منک سوى جذورک فى باطن الأرض وهذه الجذور التى تدل على الحياة إلا أنّها لک أيتها النخلة قد بقيت لمجرد ذكرى للملايين النخيل وقد اختار العدد مليون لشهرة البحرين قديماً باسم أم المليون نخلة.

عندما يغرقكِ المدُّ،

ويمحو ذكركِ الأسفلتُ

تبقينَ بجوف التربة السمراء عِرقاً.

واهناً، ذكرى حياة

لملايين البواسق، سيدات الشجر المعطى

(خليفة، ١٩٩٢م: ٧٠)

وقد وصف الشاعر هذه النخلة بالسيدة التى تعطى كما وصفها بالمرأة لتوافر عدة أوجه شبه بينها وبين النخلة منها: طول النخلة وجسمه النخيل والرطب المعلق بالنخلة كالقلادة المعلقة على رقبة الفتاة وأيضاً عطاء النخلة.

ويشير الشاعر بثبوت النخلة ويقول الغيوم حامل سلام الأنهار والبحر وأجرام السماء لأجل النخلة:

حيثُما امتدّت على الأرض فلاة

ثابتٌ أصلُك، فَرعاءُ،

رذاذُ الغيم يقربكِ سلام النهرِ والبحرِ والأجرامَ

السمـــــاء

(المصدر نفسه: ٧١)

وفى نهاية قصيدة فى وداع سيدة الخضراء يشكو الشاعر من قطع الأشجار ودمار الحقول ويحزن على عدم وجود نخلة:

ما الذى يمكنُ للطفل الذى يغفُو على حضنى أقُول

عندما يلمحُ ظلاً لبقاياكِ بأطراف الحقول

ويغنّى بعضَ ما جُنّت به الدُّنيا، وماتَت

من تباريح أساه الشُّعراء؟

ما الذى يمكنُ يا سيدتى الخضراءَ؟

والدُّنيا تُغادر

لونَها الأخضَر،

والأرضُ التى كانَ لها عُرسُ البِذَار

قَتَلت أشواقها الحرّى

وقالت للرّجال الجُوفِ: هاتوا

كل ما تبقونَ إسمنت وقار؟!

(المصدر نفسه: ٧٢)

الرمز والواقع

إنّ تغير البنى الاجتماعية والاقتصادية، وما رافقه من تطور فى ركائز المجتمع التحتية ساهم فى تشكّل حالات جديدة يعيشها الإنسان البحرانى، استدعت ظهور معضلات جمّ ومشكلات متنوعة، كان لابدّ من الوقوف عند عقدها وتعقيداتها، واتخاذ المواقف المناسبة تجاهها.وقد وقف الشعراء البحرانيون من مشكلات وطنهم مواقف واقعية، وواقعية الرمزية حيناً، ومواقف بعيدة عن الواقع هاربين من خلالها إلى مشارف الرومانسية، حيناً آخر.وأفاد كثيرون منهم، وخاصة شعراء الستينيات والسبعينيات، من تيارات الواقعية المتنوعة، وطوعوا الرمز فى أشعارهم، واستلهموا الأساطير المحلية والعالمية، ووظفوها لتكون عاملاً جمالياً فى نتاجاتهم الإبداعية.

جاءت أعمال على عبدالله خليفة الشعرية لتدل على تجربة ذات خصوصية واقعية، جديرة بالدراسة والاهتمام.

تتجلى الواقعية واضحة فى قصائد الغوص، إذ يقف الشاعر فيها إلى جانب الغواص الفقير المستغل مواجها التاجر والسمسار المستغل وبذلک يتضح موقف على عبدالله خليفة النابع من انتمائه الطبقى، وإحساسه بالمعاناة التى عاشها كل بحار مستغل.

ولقد أراد خليفة أن يصور الظلم الواقع على العمال، كما أراد عبد الصبور أن يصور الظلم الواقع على فلاحى قرية دنشواى، فقدم نصاً تفوح منه رائحة البؤس، وصف فية حياة الطفل سلطان. ونكاد نجد الريف وعيش أبنائه يفيضان بالطيبة والمرح، رغم فظاعة الواقع وجوره

كانت له عينان نجمتان

كان طيبا...

ككل حقل ها هنا بضفة الخليج

بالأمس طفلا عاش فى أزقة الحى الكسير

يضاحک الصغار

ويستحم عاريا فى البركة الكبيرة

ويسرق الجريد والثمار

من نخلة الجيران

(خليفة، ٢٠٠٠م: ٦٧)

يقدم ديوان "إضاءة لذاكرة الوطن" صورا واقعية عن الوطن الحزين، المشتت فى زوايا المشكلات المتفاقمة. لكن هذه الصور الواقعية تأخذ ملامح رمزية، تضفى على نصوص بعض القصائد قراءات مجازية متعددة.

كما فعل فى سطور "آثار أقدام على الماء"، ذاكرا اسم الثائر عبدالله حسين نجم. ويكتب قصيدة "حزن ليلى: طفول"، مبينا فيها الحزن الثقيل المهيمن على حياة الأطفال الذين غدوا ضحايا قمع السلطة، بعدما أخذ جلاوزة الحكم ينكلون بالثائرين ويقتلونهم. ومن هؤلاء المضطهدين من كان معيلا لأسرة كبيرة. وما ليلى وطفول إلا طفلتان فقدتا أباهما فى خضم الاستبداد، الذى استشرى بالبحرين آنذاک

دامع قلب ليلى، وكنت أسرح شعر طفول

وكانت طفول تنادى أباها الذى غيبوه، وتمسح

للياسمين البرىء شذا دمعه

(المصدر نفسه: ١٠)

منذ بداية القصيدة أراد الشاعر وضعنا فی جو شجی مستخدما بعض الرموز الرامية إلى إضفاء معنى الحزن على النص الشعرى، فاستقدم لفظة "البباى"، لتكون رمزا يفضى إلى جو الكآبة المهيمن على سطوره كلها:

زرقة البحر قامت

على كتفها طفلتان

طفلة قبلتنى ونامت

حقول (بباى) حزين بحضن المروج

(المصدر نفسه: ٧)

فهل أحسن الشاعر حين أتى بهذه الكلمة رمزا للحزن؟ إن البباى بلفظه الغريب وشكله الذى لايعرفه، كما نعتقد، أناس كثيرون فی معظم أرجاء بلاد العرب، لايفلح فی توليد مشاعر الحزن فی وعينا، وفی شعورنا الداخلی. هو فاكهة غريبة نادرة، من الصعب أن نقبل بها رمزاً لشیء شائع وعام، هو: الحزن. وثمة ألفاظ كثيرة كانت ستعطی معنى أكثرعمقاً، للتدليل على حالة الأسى والشجن، لو أن الشاعر استخدمها عوضا عن كلمة "البباى". بيد أن الشرح الذى وضعه الشاعر على هامش الصفحة، يمكنه أن يفيد القارى فی تلمس قامة الرمز المراد؛ فالبباى –كما ورد فی الهامش – "من الفواكهة النادرة التی تنمو فی تربة الخليج المالحة". ولعل الشاعر وجد فی معاناة هذا النوع من الثمر النابت فی قلب الملح، موطنا للكآبة والأسى.

وهكذا نجد عالم على عبدالله خليفة الشعرى- بالإضافة إلى كونه رومانسيا – عالما واقعيا ورمزيا لايخلو من الأسطورة، فهو متحف غنى بالرموز التی تطورت بتطور شعره، فكانت فی بداياتة بسيطة سطحية، وأضحت مركبة عميقة المعنى، بعيدة الأغوار فی منطقها، تحتمل تفاسير متعدده الجوانب. إن هذا التنوع الرمزى وليد تجربة غنية عالجت قضايا وطنية وإنسانية، وانتبهت إلى الطبيعة والحيوان والنبات، وما زالت عناصرها تتسع لتطال جميع مناحى الخلق والوجود. (شحادة، ٢٠٠٨م: ١٥٩)

النتيجة

يعتبر على عبدالله خليفة من أبرز رواد الشعر فى ساحة البحرينية وينتهج الرومانتيقية مسلكاً فى أشعاره . إضافة إلى تفننه فى إنشاء الاشعار الفصيحة له باع طويل فة إنشاء الأشعار العامية تُسمّى "الموال" وله ثلاثة دواوين شعرية فى هذا المضمون قد انتهى من صياغتها.

لعبت بيئته المعيشية دوراً كبيراً فى أنشاده الأشعار الفصيحة كما صاغ كلمات ملائمة بظروف التى كانت تمر فى حياته ونرى فى ديوانه الأول "أنين الصوارى" قد جسّد حياة غواصى اللؤلؤ ومهنتهم الشاقة ومكابد سفرهم فى سياقٍ مسرحى جميل.

قد امتزجت فى أشعاره بعض المعانى والرمز والواقع بشكل جميل وقد تكاد لاتخلو من أساطير.وقد تكون هذه الرموز فى بداياته بسيطة سطحية ولكن يكمن فى مضمونها تفاسير عدّة وتحمل فى طياتها معان مختلفة. إن هذا التنوع الرمزى وليد تجربة غنية عالجت قضايا وطنية وإنسانية، وانتبهت إلى الطبيعة والحيوان والنبات، وما زالت عناصرها تتسع لتطال جميع مناحى الخلق والوجود.

وهذا ما لمسناه عند تتبع مسار على عبدالله خليفة الشعرى من خلال مجموعاته العديدة، حيث شاهدناه يقفز من ديوان إلى آخر تاركاً فى كل ديوان بصمة جديدة، يعود إلى ظلالها من حين لآخر، مضيفاً إلى عذوبة كلماتها نداوة، وإلى ضراوة إيقاعاتها حلاوة.

المصادر والمراجع

خليفة، على عبدالله. ٢٠٠٠م. إضاءة لذاكرة الوطن. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

خليفة، على عبدالله. ١٩٩٤م. أنين الصوارى. المنامة: دار الغد.

خليفة، على عبدالله. ١٩٩٢م. فى وداع السيدة الخضراء. البحرين: دار الغد للنشر والتوزيع.

خليفة، على عبدالله. ٢٠٠٩م. وشائج. بيروت: المؤسسة العربية للطباعة والنشر.

شحادة، يوسف وميخالک، بربارا. ٢٠٠٨م. فى عالم على عبدالله خليفة الشعرى. حلب: دار عبد المنعم الناشرون.

مؤمنى، صمد. ١٣٩٠. «دراسة أبعاد الوطن الفنية والاجتماعية فى شعر البحرين المعاصر». فصلية دراسات الأدب المعاصر. السنة الثالثة. العدد الحادى عشر. صص١١٣-١٣٠.